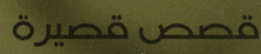
عمامة العسكر

حمود سعود





حمود سعود

عمامة العسكر

قصص



حمود سعود

عمامة العسكر

قصص

الغلاف من تصميم الفنان محمد زايد الحبسي



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-366-0

الطبعة الأولى 2013

المحتويات

الإهداء 7
تنويه 9
دمُ الجلّاد ومرثيّة الضجر 11
ظلٌّ حكاية صغيرة 25
لا توجد عصافير 29
ما تبقى من حديث الجثة 33
دبور 41
العمامة 45
وجوه في ذاكرة رجل لا ذاكرة له 53
لحظةُ سقوط 59
الخديعة المعلّقة 67

قصص قصيرة جدًا

زرقة 77
حُلم 79
صوت 81
لوحة 83

كلب 85
شاعر وثلاث مقابر 87
نفق 89
تذكّر 91
كلام 93
امتداد . . . .
95

الإهداء

في الموتِ كما في الحياة
هنالك حنين.
في الحبِّ كما في المنفى
كذلك هنالك حنين.

إلى خالد
روحًا، وطفلًا، ودمعة في المقبرة.

تنويه

أحداث وشخوص هذه القصص
هي من نسج خيال المؤلف.. فإن
حدث وتشابهت مع أحداث أو
شخوص في الواقع فإن ذلك من
قبيل المصادفة لا أكثر.

دمُ الجلّاد ومرثيّة الضجر

رسائلُ صغيرة من السجين
(ISS .94) إلى أشياء حميمة.

1 ـ من الزنزانة إلى رحمها

أيها الكائنُ النائم الآن داخل رحمي. عمتَ مساء أو عمتَ صباحًا، لا وقتَ محددًا هنا. أنتَ المتكور على نفسِك الآن منذ أيام، تفكرُ في دموع أمك، وفي موسيقى المقهى، وصوت النادلةِ، وشمس الظهيرةِ، وظهيرة المقابر، وفي طفولتك البعيدة والقريبة، وفي ذكرى امرأة الحلم، وفي الأصدقاء، وفي الحنين. وفي الوجوه التي مرّتْ في الذاكرةِ، والأجساد التي تحتَ الترابِ، وفي الطفل الذي يركضُ في المقابر.

أيها الكائن فكّرْ في نفسِك ولو لخمس دقائق من عمرك المسروق في بيت الجلّاد. فكّرْ في وجهك الغائب منذ زمن، وفي الطفل النائم بداخلك.

أيـها الـكـائـن لا تـفـكّـر فـي أي شـيء، حـدّقْ إلـى السقفِ، حدّقْ إلى عين المخبرِ المعلّقة بالسقف، حدّقْ إلى تضاريسِ رعبه، حدّقْ إلى يده المرتجفة كيد اللص.

وفي خديعة الكلام والضوء والعتمة، فكّرْ في صوت صدى مفاتيح الزنازين في الممر الفاصل بينها.

2 ـ إلى أحمد البحري

أيها الرفيق الجميل، جمعتنا ساحة الشعب. كنتَ تقطع المسافات برفقة خميس قلم لتشربا شاي الساحة وتدخنا مع الأصدقاء تبغ الحرية. ومقاهي مسقط، وخديعة الحكايات، والليل في البريمي، والآن تجمعنا زنزانة واحدة، قبل عام كنتَ أنتَ في هذه الزنزانة وكتبتَ على جدرانها:

ـ هذا المكتب السلطاني.

ـ هذا اعتقال غير قانوني.

ـ الأحرار يمرون دائمًا من هنا.

ـ لا تحزنوا فأنتم الأعلون.

وعلى جهة اليمين من الفراش كتبتَ:

ـ لا تمت قاومهم بضحكاتك.

في الليلِ أحاولُ أن أسرقَ ضحكةً واحدةً من أشواكِ الضجر الليلي، فلم أجد سوى دمعة أمي تحاصرني، وصوت الجلاد يصرخُ في وجهي في غرفة التحقيق الضيقة.

ـ «أنت ما فيك أدب والحكومة بتعرف كيف تأدبك».

ـ «يا السفلة تتجرأ على ولي نعمتك وإللي علّمك ودرّسك......».

يا أحمد من أين أجدُ الضحكةَ؟ وهل يفهمون معنى الضحكة؟

ربما سيقولون لي : لماذا ضحكت؟ وما الأهداف الخفيّة للضحكةِ؟ ومن كان معك في الضحكة؟ وكيف وصلت إليك الضحكة إلى الزنزانة؟ هل نسّقت مع أحد قبل أن تضحك؟

يا أحمد في الليل أحدّقُ إلى قبيلتك المكتوبة على الجدار الأيسر للزنزانة، وأتخيّلُ أن قبيلتك تتحول من البحري إلى بحر، بحر واسع يجرفني من الزنزانة، يجرفني من هذا السأم المدمر. وفي هذا البحر أرى ناصر بن مرشد اليعربي يحرق آخر سفن الغزاة، وأرى دم الغزاة يغسل الجبال.

3 ـ إلى امرأة غجرية في غرناطة

في الزنزانة الانفرادية، وفي سراديبهم «الوطنية» كانوا يقدمون لي مع كل وجبة (غداء أو عشاء) سلطة خضار، ومع هذه الخضار ثلاث حبات زيتون أسباني أسود اللون، ثلاث فقط. لا أدري لماذا يصرّون على اللون الأسود؟ جونية الاعتقال سوداء، ملابس الحراس المقنعين سوداء.

كنتُ بنوى هذه الحبات الثلاث أكتبُ على جدران الزنزانة في الليل.

كتبتُ اسم الله ممتدًا إلى الأعلى، وبعده كتبتُ (عمان الجديدة).

وكتبتُ الحرية ممزوجة بالحياة وبالجمال، وكتبتُ بنواة (البطيخ) الأسود اسمي والعام الأسود واسم هذه البلاد التي تقسو على طفولتها.

في الضجر النهاري كنتُ أفكّرُ في الفتاة الغجرية التي حصدتْ بأصابعها حبات الزيتون الأسود، وأحاول إشعال لعبة الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة للخيال.

قال الخيال: ربما كانت فتاة في العشرين من العمر، تدرس في جامعة غرناطة في كلية الآداب، وتعشق لوركا وتحفظ أشعاره. تسكنُ في بيت ريفي يطلُّ على نهر، تجلس الآن على شرفة بيتها الريفي، مع صديقها وتشرب نخب عيد ميلادها، وتغني له، وتقرأ له من شعر معشوقها لوركا.

العاشرة ليلًا بتوقيت غرناطة، لا وقت محددًا هنا سوى الضجر.

يدها على خدِّ صديقها، تداعبُ خصلات شعره الأشقر. شعرك الأسود يتساقط على أرضية الزنزانة. تزرع شعرك المتساقط في جدران الزنزانة لعلّهُ ينبت غابة تشبه غابة الغرناطية البعيدة.

يدك تضغط على نواة الزيتون الأسود، تكتب اسم بلادك. بلادك التي كُنتَ تهتفُ لها في صباحات البرد (حرة... حرة). البلاد التي همستُ بصوت خفيف في سيارة الاعتقال (اليوكن الأمريكية السوداء): «حرة يا عُمان رغم القيود والظلام».

يدك تتلمس اسم الله المكتوب على جدار الزنزانة.

يدها على ديوان لوركا تقرأ قصيدة صغيرة.

أيتها الغجرية هل تدركين الآن أن يدك التي قطفتْ حبات الزيتون من بلادك تتركني وحيدًا في زنزانة عربية؟

وأنا مثلكِ أعشقُ لوركا.

لا نلتقي لا نفترق، المسافة سيدة المنفى أيتها الغجرية البعيدة.

يا لهذا السواد أيتها البعيدة.

صرخ الخيال مرة أخرى معترضًا على الخيال الممكن السابق، رافضًا ما قاله الخيال السابق.

قال الخيال : يا بو سعود إن الحبات الثلاث السوداء التي تأكلها مع كل وجبة هي أسبانية المنشأ ولكن اليد التي قطفتها ليست لفتاة في العشرين. اليد لامرأة عجوز ثمانينية مات زوجها منتحرًا تحت قطار ليلي. تعيش وحيدة منذ عشرين عامًا. أحيانًا يزورها ابنها الوحيد القاطن في بلاد ما وراء ضفة البحر. الآن العجوز الثمانينية تنام...

ـ على الجدار.

ـ يدك فوق.

طار الخيال خوفًا من صوت حارس الزنزانة.

4 - إلى أبي

أبي الجنوب، أبي المنفى. ما بين دمك النازف في الجنوب خريف 1973م وبين صيف 2012م كنتَ الحكاية والقصيدة والجرح. الحكاية لم تكتمل ولن يكتمل الجرح يا أبي. لأن البلاد جرحٍ يكتبه المستعمر «الوطني». أحلامك المبعثرة في البحرين وقطر في ستينات القرن المنصرم. وأنت لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرك. منفاك كان هروبًا من سجن سعيد بن تيمور الكبير. في بداية السبعين كنت جنديًا وسيمًا بـ«الغترة والعقال»؛ كما تقول الصورة الوحيدة واليتيمة لك في جيش الإمارات.

قال لكم المسافرون والجرائد: ارجعوا إلى بلادكم. عمان محتاجة إلى أبنائها.

ترجع من منفى الجوع يا أبي لتجد نفسك في الحرب والدم. لم تستوعب فكرة الرجوع. رأيتَ الإنجليز الذين شاهدهم أبوك في حرب الجبل الأخضر. رأيتهم يرسمون الدم والخريطة والعهد الجديد.

أبي الجنوب، أبي المنفى

أبي الدمع، أبي الدم.

جسدك المتروك في العشب الأخضر، الدم الذي سال. سال ليثمر الخديعة الكبرى.

ها أنت تبكيني الآن يا أبي وأنت تُطلُّ على البلاد، ودمك النازف في دم اللحظة القلقة. في مكالمتك لي في

التاسع عشر من يونيو وبعد عشرة أيام لي في السجن السرّي.

قلتَ لي:

- «يا ولدي أنت في عمان وا شالينك في الخارج؟»

- «ما أعرف يا أبوي.. مشلول في جونية سودا».

يصرخ المحققُ:

- «ليش قلت حال أبوك إنك مشلول في جونية»؟

- «أيوه مشلول في جونية سودا من القسم الخاص. شو يعني جايبيني في طائرة».

- اسكت.

- ما اسكت.

- إذا ما سكت بدخّلك المختبر.

حبست الدموع في غرفة التحقيق حتى لا يراها رجل الأمن، تحت الماء تركتُ الدمعة تسيل، سال الدمع والماء في أنابيب سجن الأمن الداخلي، كما سال دمك ودمعك يا أبي.

لم أنم طوال تلك الليلة. بكيتُ كثيرًا. صوتك البعيد، صوتك في المنفى والجوع والفقر والحرب.

رأيتُ يُتمك الطفولي، ورأيتُ جوعك في المنفى، وفقرك في الوطن.

رائحة دمك النازف في الجنوب أثمرتْ وردةً ونخلةً.

كلما حدّقتُ إلى سقف الزنزانة رأيتُ صورتك، وكلّما دسستُ وجهي تحت الغطاء سمعت صوتك.

سأقولها لك يا أبي مرة أخرى كما قلتها لك في سجن سمائل:

ـ لن أموت يا أبي كما لم تمت أنت في الجنوب.

ماء الخديعة لن يسيل مرتين.

يا أبي جنوبك البعيد لن يلتقي شمالي الملتهب.

5 ـ إلى الحذاء

بعد سبع ليالٍ وثمانية أيام حافي القدمين، مُجبرًا على أن أرتدي (آفرول أزرق). خطواتك الثلاثون نحو دورة المياه، خطواتك الخمسون نحو مكتب التحقيق، وخمس وأربعون خطوة نحو مكتب الطبيب الهندي الذي يعالج كل أمراض الأرض. حافي القدمين. تحاول أن تتذكر الأحذية، تفكر في أغلى حذاء انتعلته.

بعد ثمانية أيام.

يطلب منك رجل الأمن الملثم بالسواد. يخافون عندما تنظر إلى عيونهم.

ـ رأسك إلى الجدار. ارفع يديك.

رجال الظلمة والسواد يأخذونك إلى غرفة التحقيق، وبعد ساعة ترجع إلى الزنزانة، يرفع رجل الأمن الكيس الأسود، يفك القيد من يديك.

ـ رأسك في الجدار. يصرخ.

ـ غيّر ملابسك والبسْ ملابسك المدنيّة.

أُنزل يدي، ألتفتُ نحو الفراش، أرى دشداشتي وإزاري الأبيض و(الكمة) الزرقاء والحذاء.

خلعت ملابس الزنزانة، لبست دشداشتي والكمة، الآن شعرت بقيمة الكائن بعدما كنت رقمًا في حساباتهم.

أدخلت قدميّ في الحذاء. أخرجتهما. أدخلتهما مرة أخرى. مشيتُ قليلًا بالحذاء. ثلاث خطوات ونصف. رجعت إلى الخلف بالطريقة نفسها. يااااااه كأنني طفل يفرح بحذائه ليلة العيد، لا أنا أكثر فرحًا الآن من طفل العيد.

أخرجتُ قدمي من الحذاء، تمددت على الفراش، نزعت الكمة من رأسي، تأملت الحذاء، بياض في الطبقة العلوية وسواد في الطبقة السفلية، لأكثر من عشر دقائق كنت أتأمل هذا الحذاء فرحًا وتحليلًا للونين المتضادين، السواد والبياض، فرحت كثيرًا بدشداشتي البيضاء، الحذاء تاريخ الإنسان، تاريخ لحياة الكائن، الحذاء لوحة الخطوات، بياض الفرح يغسلُ سواد الزنزانة.

تذكرتُ كل مواقفي مع الأحذية.

6 ـ إلى الميت حمود الراشدي

في العشرين من شهر يونيو في العام الوطني الملتهب وبالتحديد في فجر الأربعاء وبتحديد أكثر قبل أن يُرفع صوت النداء في جوامع مسقط بساعة أو أكثر بقليل؛ كانت جثة الشاب العُماني المدعو في أوراق الحكومة حمود الراشدي باردة في الزنزانة الضيّقة، وكان المكيف المركزي (التوشيبا) ياباني الصنع ذو الثلاثة أطنان يدفع برودته بكل قوة على الجثة الممددة، رأس الجثة سقط على الجانب الأيمن من الوسادة.

الرابعة والربع فجرًا

يفتح رجل الأمن المقنع بالسواد باب الزنزانة. يدفع الباب بقوة.

يصرخ:

ـ الراشدي صلاة قووووووم.

ـ ....

يصرخ مرة أخرى:

ـ الراشدي قوووووووم صلاة.

يقترب بحذر شديد من الجثة. بطرف حذائه العسكري لكز قدم الجثة.

ـ الراشدي قوووووم على الجدار.

ركل رجل الأمن الجثة بحذائه العسكري في الفخذ، خرج، لم تتحرك الجثة.

العاشرة صباحًا

كانت جثة المدعو حمود الراشدي ممددة في مشرحة الموتى في مستشفى الشرطة. خارج غرفة التشريح كان ضباط الأمن في حالة توتر. بعضهم تفوح منه رائحة خمر ليلية، وفي مشرحة المستشفى كتب الطبيب الجنائي:

«إن الجثة فارقت الحياة الساعة الثالثة فجرًا، وإنّ سبب الوفاة هو البرودة الشديدة.

سحب ضابط الأمن التقرير الطبي ومزّقه. وحذفه من كمبيوتر الطبيب.

نزل حرّاس الملك والملاك من قلعتهم الأمنية التي تطلُّ على مسقط.

في بهو المستشفى اجتمعوا. وخلال ساعة فقط قرروا أن يكتبوا في تقريرهم أن المدعو حمود الراشدي فارق الحياة بشكل طبيعي جدًا.

حملتْ سيارة الإسعاف جثة الشاب الثلاثيني من المشرحة إلى قريته المختبئة خلف جبال الحجر. ومن مصادفات الحياة والموت أن سائق سيارة الإسعاف كان صديق الجثة وهو شاعر، ومن مصادفات الحياة والفاجعة كذلك كان السائق الشاعر يردد مقطعًا لمحمود درويش حفظه البارحة:

«لـم أجد سببًا لأسأل: منْ هُو الشخصُ الغريبُ؟

وأين عاش، وكيف مات فإن أسباب الوفاة كثيرة من بينها وجع الحياة».

السادسة مساء / مقبرة سيح القلعة

في المقبرة يد رجل تعجن الطين بالماء، رائحة الطين تعبق في المكان. وفي المغسلة كانت الجثة جاهزة. مرّت الجنازة صامتة وغاضبة.

همس شاب لصديقه:

ـ «الله يهديه المرحوم شو يريد لها الحكومة؟. مدرّس راتبه زين. من يناطح الحكومة برأسه؟».

كانت يد صديق تضغط على أزرار هاتفه وتكتب رسالة نصية:

ـ جنازة حمود الراشدي تمرُّ الآن في لحظاتها الأخيرة مع وجود أمني كثيف.

كنت أصرخ بهم أن يدفنوني تحت تلك «السرحة»[1] هناك حيث يرقد أخي خالد منذ ربع قرن. خالد الذي يرقد تحت ظل السرحة منذ ربع قرن لم ينتبه لجنازتي العابرة.

---

(1) السرحة: شجرة كبيرة تشبه الطلح وتسمى في العربية طريح وقضه ومره. ورقها لا شوك له.

كان الغروب الأخير للشمس وهي تختبئ خلف جبال الحجر.

على بُعد أمتار قليلة من قبر جدي دفنوني في مقبرة القبيلة بعدما تركوني بخمس دقائق.

صرخ الجدُّ من قبره القريب:

ـ بعدهم الإنجليز في عمان؟

ـ لا حول ولا قوة حتى هنا سياسة. أيْوَه جدي بعدهم الإنجليز يهيسوا ويقرزوا في البلاد».

ظلُّ حكاية صغيرة

وعندما بدأت المطاردة في الصحراء، وتُرك الظلّ على هامش الحكاية.

لم يستطع سرد ما تبقى منها.

صرخت ذات زمن بلاد بحكاية. الحكاية التي صرخت بها البلاد لم يسمعها العباد. قالت البلاد عن الحكاية:

ـ «الظلُّ يتبع الكلب. الكلب يُطارد الرجل في الصحراء. الصحراء تمتد بامتداد الكلام».

قال الظلُّ:

ـ أنا خارج النص. لولا الكلب لكنتُ في العدم.

سخر الكلبُ من مكر الظلِ: لماذا أخبرتَ البلاد بالحكاية؟

ـ .....

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ الضّجر أكل صمتي.

مرَّت السنواتُ الطويلة، والكلب يُطارد الرجل. تمتدُ المطاردة وتكبر، وتزهر، وتموت، وتحيا، تتدحرج. بعدما

شربت الصحراءُ الرجلَ والكلبَ. حوّلتهما إلى صديقين. الصديقان تركا الظلَّ وحيدًا على حاشية الحكاية. ظلَّ الظلُّ على أطراف الصحراء غاضبًا على الكلب.

كانت سنوات المُطاردة كفيلة بأن يتحول الكلب إلى صديق حميم جدًا للرجل. بعدما أكل التعبُ قلبَ الكلبِ، وتآكل جسده. في عام السقوط (الذي نسي الظل أن يسرده) وفي التلال المزروعة بالصمت والمتشابهة حد التطابق. تحوّلتْ جثة الكلب إلى رجال ونساء ورجال قبائل وشعراء ورجال دين وعاهرات ورجال أمن وأطفال يحملون أكفانًا بيضاء وسوداء وزرقاء، ولصوص، وأصوات طيور.

وقف الرجلُ وسط الصحراء مندهشًا، خائفًا، وباحثًا عن صديقه الكلب. محاولًا أن يجمع كل هذا الشتات الغريب من الكائنات، حاول أن يُغني لهم. غنّى لهم أغاني حزينة. تذكّر بعض الأغاني الثورية وأغانيَ لوطن دُفن منذ زمن طويل. وكلّما تقدّم في الغناء رآهم يجتمعون حول شجرة كبيرة. الأطفال يطلقون الأكفان حرّةً. طارت الأكفان جميعًا إلى سماء بعيدة.

العاهرات أخذن يبكينَ، ويرقصنَ ويوزعنَ أجسادهن للعابرين والشعراء، ويرددن قصائد حزينة. رجال القبائل يطلقون النار في الهواء، يحلمون بأن يصبحوا سادة الصحراء. رجال الأمن حاولوا أن (يستغلوا هذه الفوضى) وأن يقبضوا على الرجل الذي طارده الكلب لسنوات عديدة. الرجلُ تسلّق الشجرة. الشجرة ازدادت اخضرارًا وردّدتْ مع الشعراء قصائدهم الثورية. ضمّت الرجل إليها، واحتضنته.

اللصوص غافلوا الجميع وجمعوا ما لذَّ وطاب لهم من جسد الحكاية المنقوصة.

أخذت الشجرةُ تحدثهم عن تاريخ الصحراء والقبائل التي مرّتْ على ظلّها الظليل. وحدّثتهم عن حقول تنبتُ زيتًا أسود. وعن بلاد صارت وطنًا للعهر الرسمي الوط....، وعن غزاة ولصوص نكحوا الصحراء والبلاد والعباد. ولم تلد الصحراء شيئًا منهم.

تحدثت الشجرةُ عن رجال شُقر وحُمر وبلاد لا تغرب عنها الشمس وعن الدم والحروب، وعن الخديعة التي مرّتْ من فوق جسد الصحراء، ومن تحت أفخاذها الشهية والمشتهاة.

وتحدثت الشجرةُ عن الكلبِ والأمنِ وأولاد الكلب الذين طاردوا الرجل وعن بشر سمعت عنهم ورأتهم ينتفضون مرتين أو ربما ثلاث مرات، ولكنه النسيان غافل ذاكرتها. وسقطت الانتفاضة الثالثة سهوًا ربما، وربما من فوضى الحكاية.

من بعيد نَبح الكلبُ رجال الأمنِ، حاولوا أن يطاردوه لكن كانت أرجلهم قد التصقتْ بالزيت الأسود الذي نبتَ في الصحراء.

الزيت الأسود المنفجر من جسد الصحراء. تساقطت نقاط منه على جسد الحكاية، رائحته أزكمت الظلَّ. استيقظ مفزوعًا. حاول الظلُّ تنظيف الحكاية وسردها للبلاد.

عن صحرائكم عن صحرائنا عن كلب عن رجل قال الظلُّ بخديعة الحكاية:

ـ كانت بلاد لها بشر يزرعونها دمًا وجوعًا وحكايات وحروبًا. البشر الزارعون لكل شيء إلا أنفسهم. لم يدركوا ما كان يفعله الرجل والكلب، وما حدث لهما في الحكاية. ولم يشتمّوا رائحة الصحراء. ولم يدركوا ما كانت تفعله الصحراء بأفخاذها العارية مع الرجال الشُقر الذين مرّوا على جسدها. جسدها الذي مارس الخديعة مع الكل.

وأمّا ما قالته الشجرة فإنني لا علم لي به. لأنّ الكلب تركني على هامش الصحراء.

بدأت الحميمية تذبل بين الكلب والرجل. رائحة الزيت أفسدتْ كلَّ شيء.

فاختلف الكلبُ مع الرجل أيهما يتبع الآخر. قال الكلب للرجل:

ـ أنا من وفرّ لصحرائك الحماية من اللصوص.

قال الرجل للكلب:

ـ أنا الذي أطعمتك من جسد الصحراء.

ردَّ الكلب (بسخرية مبطنة):

ـ ما جدوى الطعام وأنت خائف.

ردَّ الرجل بغضب:

ـ وما جدوى الأمان وأنت ذليل.

لا توجد عصافير

إلى «ش» البحيرة التي بحث
عنها الغريب في الصحراء.

السدرةُ ابنةُ الصحراء المدللة، وسيدة الأمكنة الجميلة. كانت هي المتربّعةَ على العرش في ساحة بيتهم، وهي موسيقى طفولته، كبيرة كأحلامه، طيبةٌ كحنان أمه التي ماتتْ قبل أن تتباركَ عيناه بها. يجلسُ كل مساء وحيدًا فوق سطح منزلهم، يعدُّ العصافير القادمة من نخيل القرية:

خمسة عشر...

ثلاثة وثلاثون...

الخامس والأربعون.

فجأةً تختلط الأعداد في رأسه. تحملُ العصافير أوجاع النخيل وهتافاتها الصاعدة إلى السماء، وأغاني المعذبين والجياع. تمرُّ المساءات بسرعة وفي كل مساء يتناقصُ عدد العصافير القادمة. وعندما بزغتْ خارطة البلوغ في وجهه لم يأت عصفور واحدُ لينامَ فوق السدرة، ماتتْ أغاني النخيل في قلبه كما ماتتْ أمه، وقصائد الجياع التي عزفتها العصافير. في الورقة قبل الأخيرة من كتابه «الغتي» كتبَ:

(لا توجد عصافير في قريتي يا أستاذي).

بدأت الغربانُ تغزو السدرة بأعداد متزايدة. المساءات تمرُّ بسرعة، وتمضي أيامه بسرعة أكبر. ظلّت العصافير تزقزقُ في قلبه، أقسم بالله في تلك الليلة أنه سيُكني نفسه بأبي العصافير. وسيكتب ديوان شعر بعنوان (عصافير). وسيحضّر شهادة الماجستير والدكتوراه في «العصافير». ماتتْ كل العصافير في قريته. نصحهُ صديقه بالذهاب إلى العاصمة. فالعاصمة مليئة بالعصافير. ظلَّ لأيام يكنسُ بوجهه الشوارع والحدائق ووجوه البشر. فلم يجد أيّ عصفور. فالعاصمة مليئة بالغربان وأكثر من ذلك فغربان العاصمة أكثر فسقًا وسوادًا من غربان سدرة طفولته. لم يكتف بذلك، سافر إلى الدول المجاورة يبحثُ عن عصافير فلم يجدها. ظلَّ يرسمُ عصافير في كل شيء، في دفاتر الرسم، وجدران غرفته، وطاولة المقهى، وكرسي السينما، وقلب حبيبته، وقبر أمه. ظلَّ جنون العصافير يطارده.

سافرَ ثانيةً. هذه المرة إلى بلدان الثلج، للبحث عن عصافير تشبه عصافير طفولته، في بلاد الثلج فشل مرةً أخرى. ظلَّ أسبوعًا يرسم عصافير، وفي الصفحة المقابلة يرسم غُرابًا أسود، وبحركة سينمائية يشعل النارَ في الغُراب. لكنّ نعيق الغُربان ظلَّ يطارده. رجع إلى قريته بجنون أكبر بالعصافير. وجدَ أن (البلدية) قد قطعت السدرة، وبررتْ ذلك لسبب مزاحمة السدرة للأسلاك الكهربائية. ظل يبكي

عند الغروب السدرة والعصافير الضائعة. بكى الطفولة وأمه. سقطتْ صباحات القهوة في بئر الغياب. في لحظة غروب الشمس والحُلم حطّ غُراب فوق عمود الكهرباء ونعق بصوت مأسوي مرتفع وتقيّأ عصافير ميتة. صرخ هو بصوت مجنون:

ـ لا توجد عصافير في قريتي يا أستاذي.

ما تبقى من حديث الجثة

الطارقةُ النائمة منذ عشرين عامًا تحت شجرة غاف كبيرة؛ على الطرف الأيسر من المقبرة، تركها الأحياء الميّتون للراحلين الأحياء. الرجل النائم منذ عشرين عامًا في الجزء الداخلي من الذاكرة، استيقظ هذه الليلةَ هكذا بدون أيّ سبب مسبق أو ضروري. الرجل المتروك في غياهب النسيان.

صيف 1995م

الرجل النائم في الذاكرة، كان ممددًا على قطعة خشب سوداء قريبة من حوض إسمنتي تتجمع فيه مياه البئر القريبة من المزرعة. وُضعَ اللوحُ الأسود فوق الساقية الممتدة من بطن (اللّلجِل)[1] إلى جسد المزرعة، رجال بدشاديشهم البيض يتحلقون بشكل دائري حول الجثة في هذه الظهيرة الصهداء الحارقة. صوت نساء يبكين ويندبن رجلًا اسمه عامر. همسٌ من البسملات والحوقلات. تردد اسم الله كثيرًا.

ـ الله يرحمه.

(1) البركة.

ـ الله يخفف عنه.

ـ الله يغفر له.

يرتفعُ صوت (ماكينة) جذب المياه اليدوية تدريجًا. تندفع مياه باردة من البئر القريبة. انسكب الماء بقوة على الجثة المتجمدة. جثة الرجل منتفخة، وبها خدوش. هناك ورم بالرأس والصدر وخدش يشبه كلمة قديمة. وشعر أسود متناثر بشكل عبثي في ذقن الجثة وصدرها. من الجبال البعيدة يأتي نباح كلاب متقطع.

ـ ما الذي يوقظ الكلاب في هذه الظهيرة أيتها الجثة؟ هل جنازتكِ مؤلمة إلى هذا الحد؟

صيف 1975م

الرجل ما زال حيًا وفي قمة شبابه وطيشه، وفي معسكر للجيش في أبو ظبي وبسنواته العشرين، هاربًا من ماضيه والقبيلة ومن عذابات أبيه وجحيم زوجة أبيه. يحاول أن يتسكّع في المدينة نهاية كل إجازة في فنادقها وحاناتها الرخيصة. تعلّم أن يشربَ ويُدخنَ ويعاشر نساء كثيرات ومن بلدان لم يسمع بها في حياته. لحم أبيض، ولحم أسمر، ولحم ثلجي، ولحم ما وراء المحيط. في فنادق دبي تعرّف إلى نساء العالم.

وكلما سكبَ شهوته في جسد امرأة؛ زادت رغبته في أن يجرّب جسدًا جديدًا، وكلما جرّب جسدًا جديدًا كانت صورة امرأة أبيه تطارده بلسانها السليط.

ـ الله يلعنك يا الكلب روح شوف أبوك من الضاحية.

ـ يا الحمار ليش ما تروح عند خوالك في الباطنة؟ روح شوف حبوتك[1] مشتاقة تشوفك.

❀ ❀ ❀

في ليلة حمراء ومع أصدقائه العمانيين، وفي المعسكر نشبتْ بينه وبين شاب عُماني مشادة كلامية بسبب اللحم البشري ـ وشتم وعراك بالأيادي. وانتهت تلك الليلة الحمراء إلى سوداء كان لها أثر شديد في أيامه القادمة. أضمر الشاب في نفسه الشرَّ، وبدأ يخطط لانتقام يليق بثقل قبيلته العمانية. فأراد أن ينتقم منه، فقرر أن يسرق بندقية الرجل، ودفنها في رمال الصحراء القريبة من المعسكر. ابتلعت الصحراء بندقية الرجل وعبثيته.

ومع التحقيقات والحبس، فُصلَ الرجل من عمله بسبب البندقية وأسباب أخرى، كانت البندقية تغطية لأسباب أخرى أُضمرتْ. مع أنه كان منضبطًا في عمله. رجع إلى قريته بعدما أمضى في أبو ظبي خمس سنوات عاش فيها بكل جنون وعبثية. غسل نفسه من القبيلة والقرية. تعلّم في مدرسة مسائية حاول أن يعشق ويحب امرأة. فلم يستطع. لا يدري لماذا؟ خاف أن تموت كما ماتت أمه في طفولته.

رجع من أبو ظبي لا يحمل سوى عادة السُكر وحفنة من المال، وفي رأسه أبيات من شعر الجاهليين وشعر الخمر، وصلوات من العزلة في البيوت الطينية. العزلة المنسوجة من بياض الخمر ومن سواد الحياة.

---

(1) جدّتك.

ما بين 1975 و1995م

ما بين قريته الواقعة بين جبال الله المدفونة في عباءة القبائل وبين أبوظبي سنوات مضتْ وليالٍ انطوت كطي الدفاتر وأوراقها. ومن أبوظبي إلى صيف خمس وتسعين ظلت سنوات عامر بن سالم أشبه بالعبث أو أقرب إلى الجنون. ظلَّ مترددًا بين قرية أبيه الذي رحل بعد سنوات من تاريخ رجوعه من أبو ظبي وبين قرية أخواله في سهل الباطنة.

ردد كثيرًا بين ضواحي النخيل أشعار الصعاليك والخمر. في ليالٍ كثيرة سُمِعَ يصرخ وينادي أمه. سمعته شيخة بنت ناصر جارته القريبة في ليلة مظلمة يصرخ ويبكي كطفل: وينك يوو ماااااااه وينك تركتيني. يوو مااااااااااااااااه مو سويت فيك تخليني حال الكلبة نجيموه تضربني وتربطني بالليل في السدرة؟ يووووووه مااااه شوفي بو صار فيني لا حرمة ولا ولد ولا أخوان، أبوي ترك لي هالصُفة[1] أسكر وأهرّ فيها.

سَمعتْ شيخة صُراخًا يقطّع القلب. سمعت بكاء يقطّع الأكباد. وعندما روتْ ما سمعته من بكاء عامر بالليل نزلت دمعة يتيمة من عينها ومسحتها بطرف لحافها، قبل أن تسقط على الأرض.

كلما أفلس يختفي ـ وكلما اختفى تكثر الحكايات عنه ـ لمدة أحيانًا تطول وأحيانًا تقصر. يذهب ويعود بشكل جديد مرة بشعر كثّ، ومرة بصلعة تلمع. ومن أغرب

(1) الغرفة.

المرات أنّه اختفى لمدة سنة ورجع إنسانًا متدينًا ذا لحية سوداء طويلة. وأخذ يتردد كثيرًا إلى المسجد الصغير، وأذّن لصلوات كثيرة، ولم يصبر كثيرًا، بعد شهر اختفى؛ بعدما لم يزوجه أحد من القرية رجع أكثر جنونًا وتمردًا. أخذ يرفع إزاره لنساء القرية ويصرخ فيهن:

ـ يا القحاب شوفنْ هَالسفن[1] ما ينفع حال بناتكن.

مع سهرات الخمر الرخيص المغشوش ـ الذي يشتريه من الهنود الذين يهربونه من مطرح وروي عندما يعودون من إجازتهم ـ مضت حياته. يختفي ويظهر. يتمدد في الاغتراب ويقصر في عزلته. يشتم، ينطق بحكمة أو قصيدة، وينشد مقولات خمرية:

ـ «اسكر ودوخ ولا تخلّف فلوسك حال أولاد الشيوخ».

يتلذذ بترديد شعر أبي نواس، وخصوصًا في ليالي الفقر التي كان يعيشها. ردد كثيرًا وبصوت يغسله الوجع، ينطق الكلمات معجونة بالحزن:

واشرب على الورد من حمراء كالورد

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هن..ن.....ن..د

كأسا إذا انحدرت في حلق شاربها

وجدت حمرتها في العين والخ...خ.....خ...ـ د

---

(1) كلمة لها دلالات جنسية.

ما قاله الراوي

عامر رجل سكير كان نائمًا في الذاكرة، استيقظ هذه الليلة بكل تفاصيل وجهه الغائب منذ زمن طويل. وجهه المُتعب من شيء ما. خوفنا الدائم نحن الأطفال منه. نومه الكثير في البيوت الطينية المهجورة. رحل ثملًا ونُسي سريعًا لم يبق شيء في ذاكرتي منه إلا جنازته ووجهه.

ـ هل تسمع صوت الصَفَاردة[1] القادم من تحت شجر السَرح والغاف المحيط بأطراف المقبرة؟

ـ ....

قناني الخمر الفارغة كانت لنا لُعبة في زمن لم تكن لنا ألعاب، حملناها من حارة القلعة في الصباحات الباكرة. قنينة طويلة، قنينة صغيرة، قنينة كبيرة، قنينة قصيرة بعضها عليه رسوم مختلفة هنالك غزلان وسيوف وطيور وصورة قبطان سفينة مسافر، وكتابات بلغة إنجليزية.

وفي الأودية البعيدة نُصبت القناني فوق أحجار كبيرة. وبدأت مسابقة الرماية. طيور طارت بعيدًا نحو سماء الله، وغزلان هربت نحو الأودية البعيدة ونحو جبال الحجر والجبل الأخضر. وظلت السيوف كالموت منتصبة فوق الأحجار الكبيرة. غاب القبطان صاحب السفينة في سفوح الجبل الأخضر، ولم ينزل من الجبل.

ـ هل سمعت يا عامر صوت تحطّم قناني الويسكي والفودكا؟

---

(1) نوع من العصافير.

- ....

وجهك الشارد في شيء ما. ولحيتك المبعثرة والمختلطة بحمرة الخمرة. حياتك المبعثرة من أبو ظبي إلى هذه القرية البعيدة جدًا. موتك في الباطنة لم يكن يليق بك، وأنت القادم من عباءة القبيلة. ذبحتك القبيلة فغسلت دمك منها بالخمر والعبث. كفنوك متجمدًا ومتورمًا من الخمر بعد مرور يومين من الموت، وأنت ساقط في حفرة في ساحل الباطنة.

لحظة أخيرة من الجنازة

تنزلق الجنازة بصمت. عامر الميت المتجمد الصامت يُحمل فوق الطارقة الخشبية. الظهيرة تحثُّ البشرَ على أن يُلقوا بهذه الجثة بكل سرعة في الحفرة. حفروا له قبرًا منعزلًا عن قبور القبيلة. وحيدًا تحت شجرة سمر ظلَّ قبر عامر. الطارقة التي حُمِل بها تركت هكذا تأكلها السنوات ورائحة الجثة.

ما قالته الطارقة للغافة

عندما نسي الراوي سرد لحظة منسية من جسد الحكاية. قالت الطارقة[1] للغافة التي تستظل تحتها ما تبقى من حديث الجثة:

- أيتها الغافة قبل سنوات همس لي عامر بن سالم بما

(1) التابوت الخشبي.

تبقى من الحديث أن سبب طرده من عمله في جيش الإمارات أنه شتم كل شيوخ القبائل وشيوخ الدين، وشتم الطغاة، وكان يسرد جزءًا من تاريخ تلك البلاد المدفون في براميل الذهب الأسود.

سرد لي عن شهداء ورفاق حلموا بشيء ما. وقبل أن يكتمل الحلم كانوا جميعًا في المقابر والمعتقلات.

سنوات عامر بن سالم الخمس في أبوظبي كانت أشبه بلغز. صحيح أنه كان يتردد إلى الفنادق والحانات، لكنه كان كذلك يتردد إلى ما تبقى من الحلم. سنواته، أوجاعه، وأحلامه لم تمت عندما رجع إلى القرية. كان الراوي طفلًا فلم يسرد الحكاية كاملة.

واصلت الطارقة همسها للغافة بما يشبه السرّ:

«إن الجثة المدفونة الآن تحت هذه السمرة[1] كانت تتردد إلى اجتماعات مغلقة. وأن الجثة كانت تسمع عن حرب في الجنوب، وعن جيوش تزحف. كل ما سمعت الجثة ظلت تحنُّ إلى العودة».

الخدش الذي يشبه كلمة في جسد الجثة لم تبح به الطارقة للغافة.

(1) شجرة برية معمرة تتحمل الجفاف الطويل والحرارة، ورقها صغير جدًا، ولها شوك، ينتشر بكثرة في الجزيرة العربية.

دبور

ليلًا: تمرُّ الجنازةُ بهدوء تام. أنت في جنائز الغرباء وحيدًا.

ليلًا مرة أخرى: في صخب الخمرة، وصديقين وقذارة المدينة. صباحًا تستيقظ الأفكار النائمة في أجواف البشر. وتستيقظ معها موجة بشرية. تدخل الموجة البشرية في مبانٍ غير بشرية. في مدرسة البنات الثانوية تدخلُ جزء من الموجة البشرية (بيضاء الأسفل زرقاء الأعلى). صباح أبيض وسماء زرقاء. بصوت الطبلة تصطفّ الموجة في طوابير على ساحة المدرسة. بصوت المزمار تردد البنات نشيدًا. تسمرَ مديرُ عام من الوزارة جانبًا قريبًا من سارية العلم. بدأت الإذاعةُ المدرسية تنسابُ إلى آذان البنات. أسقط اللهُ في تلك اللحظة دبورًا أحمرَ. أخذ الدبور يخترق الموجة البشرية المصطفة كطابور حرس عسكري. بعد لحظات هاج الموج. ارتفع الأبيض (لون الصباح) في الأعلى. وسقطت زرقة السماء في الساحة، أخذ الموج يُطارد الدبور. سقطت قطرات دم حمراء من الموج. لم تستطع المعلمات ولا الطبلة ضبط الموج. انتشت عينا المدير العام ما تعرّى من الأزرق الساقط على الأرض، وما نضج من رمان المراهقة. فاح وجه المدير بنشوة منسية في وجه السنين. هرب الدبور

بعدما هيّج الموج إلى الطابق الثاني من المدرسة. غاب في ضجيج المدينة. بصوت الطبلة والمزمار يدخل الموج إلى حُجيرات صغيرة. تلوّن وجه المديرة بألوان الرعب. تمنى الموج أن يأتي الدبور كل صباح لكي يهيّج هذا الموج الراكد. ركد الموج في الحجيرات. طار الدبور إلى مزرعة قريبة. كتبت المديرةُ تعميمًا للاجتماع بعد الدوام الرسمي. جميع المعلمات وقعن التعميم، كان موضوع الاجتماع «الدبور». المعلمات دخلن بتكاسل شديد إلى قاعة الاجتماع. بعض المعلمات لعنَّ الدبور لأنه أضاع عليهن وقت الراحة ولذّة الظهيرة. بدأت المديرةُ الاجتماع بعصبية شديدة، اختلط لهيب كلامها بحرارة الخوف: دبور ملعون، مدير عام، تقرير وزارة. نامت معلمة (وهي جالسة على الكرسي) حلمت بدبابير لها رؤوس بشرية تأتي صباحًا وتحمل قطرات الموج، لتقطف منه ما نبت به من رمّان المراهقة. خافت المعلمة على رمانتها الناضجة. نهضت مفزوعة. نهضت على هدير غضب المديرة «دبور ملعون» مدير.... وزارة.

طلبت المديرة اقتراحات المعلمات لكي لا يتكرر هذا الأمر مرةً أخرى، ولم تنسَ أن تلعن الدبور.

قالت معلمة: يجب أن نقدّم شكوى ضد دائرة الزراعة. قالت أخرى: يجب أن نعاقبَ الطالبات اللاتي

تحركن في الطابور. قالت ثالثة بحماسة زائدة: يجب تسوير ساحة الطابور بغطاء بلاستيكي حتى لا يدخل الدبور. أغلقت المديرة الاجتماع. وفي نفسها خوف شديد من تقرير المدير العام والصباح القادم والدبور.

في الصباح التالي لم يأت الدبور. وجاء تقرير الوزارة يثني ويشكر بجميع عبارات الشكر المديرة على جهودها في ضبط المدرسة. حزنت الطالبات، وظلَّ الموج راكدًا، في انتظار دبور قادم.

العمامة

رجل أربعيني، يحيا مع روتين الحياة، وجهه يشبه وجه مدينة مهجورة منسية، تلوّن بالسُمرة. نبتتْ لحيته بشكل عشوائي، واختلط بها قليل من بياض السنوات، مسالم مع الجميع ومع كل شيء، ليست لديه أي مشكلة مع الحياة ولا البشر ولا العمل. يحيا حياة عادية جدًا. كل بداية أسبوع يذهب إلى عمله في مسقط، ويرجعُ نهاية الأسبوع حاملًا أشواقه إلى أسرته وقريته، أبٌ لست بنات. يعمل (فرّاشًا) في وحدة عسكرية، براتب زهيد. ما يُمّيز هذا الرجل انضباطه وابتسامته. يتحرّكُ طوال الوقت في العمل لا يجلس؛ يحمل أوراقًا، ينسخ قرارات عسكرية، يعد قهوة للضباط وأصحاب النجوم المتعددة. يسكن غرفة صغيرة داخل المعسكر. ينامُ باكرًا كل يوم. يستيقظ قبل الجميع. يعدُّ القهوةَ التي يحبُّ كل الضباط أن يشربوها. خمسة عشر عامًا مرّت وهو في العمل نفسه والروتين نفسه. تتغير وجوه، نجومٌ ترتفع ونجوم تنطفئ. وهذا الرجل يصلُ إلى العمل قبل الجميع، ويخرج بعد الجميع. بالإضافة إلى إعداد القهوة والشاي ونسخ القرارات والأوراق يعتني هذا الرجل بالنخيل وأشجار الليمون

والمانجو المحيطة بالمعسكر العسكري. يحبُّ كثيرًا الأشجار يُهذّبها كل موسم. يشتاق إليها، يحنُّ إليها كثيرًا.

«عُمر يمرّ وعمر يمضي وأنا وأنتي هنا. ونجوم تُعلق ونجوم تُحلّق وأنا وأنتي هنا».

تمتم بهذه الجملة؛ وهو يتأمل أطراف النخيل وهي صاعدة نحو السماء، وكأنها تهرب من شيء ما.

هكذا مرّتْ حياة هذا الرجل في هذه المرحلة، والعجيب أنه لسنوات طويلة يلبس مصَرًّا بنّي اللون. له أطراف بيضاء متدلّية. وكلما تمزّق مصَرّ يشتري جديدًا، بالقيمة نفسها واللون نفسه.

ذات يوم من نهاية أسبوع طلبه مسؤوله في العمل وأهدى إليه مصرًا أحمر اللون. ففرِحَ فرحًا شديدًا، ليس بالمصر فقط؛ بل إنه ظنَّ في نفسه أن هذه الهدية بداية الخير القادم، وفكّر كثيرًا في الترقية في العمل التي انتظرها كثيرًا، ويئس من مجيئها، وتيقّن أن الزمنَ والعسكر قد نسياه.

- «صحيح أنني من دون شهادة، ولا واسطة لكن لدي خبرة في العمل، خبرة عمر».

في نهاية الدوام كوّمَ ملابسه في كيس أسود، ولبس مصره الجديد بكل عفوية طواه على رأسه لفة، لفتين، وبالثالثة اكتمل كل شيء. كم هو سعيد بهذه الهدية. لأول مرة منذ خمسة عشر عامًا يحصل على هدية.

ـ «إذًا هذه بداية المطر أكيد الخير قادم».

كعادته الروتينية يوم الأربعاء يخرج بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا، يتوقف عند محطة الوقود. يُعبئ سيارته القديمة بنزينًا. يشتري لأولاده بسكويت وبطاطس وعصائر وينطلق. هذه المرة ليست ككل المرات السابقة هذه المرة سعيد بالمصر الجديد، يحمل لزوجته هدية احتفاءً بالهدية. ينطلق بسيارته. يُدندن بصوت مرتفع يهزُّ رأسه طربًا وفرحًا وجنونًا. ويسرحُ في أحلام كبيرة.

ـ «سأبني بيتًا واسعًا، سأغير سيارتي، وربما أتزوج الثانية.. ووو الترقية قااااااااااااادمة.

مع الأحلام قطع نصف المسافة دون أن يشعر بطول الطريق. أخذت السيارة كذلك تتمايل في الشارع. يسمعُ صوت بوق سيارة خلفه؛ فيرفع رأسه إلى المرآة الأمامية وبسرعة يلمح شخصًا يظهر في المرآة؛ فيرتعبُ ويضغطُ فرامل السيارة حتى كادت تتدهور لولا أنه كعادته لا يسرع، يوقف السيارة على جانب الطريق. يبسملُ ويحوقل. ينزل من السيارة، يفتحُ الباب الخلفي. يبحث عن الرجل الذي رآه في المرآة. فتّشَ السيارة. قلّب ملابسه والأغراض فلم يجد شيئًا. يرجع إلى سيارته وهو يتمتم:

ـ أكيد هذا الشيطان ما يريدني أفرح.

تناسى موضوع الصورة. أخذ يُدندن مع صوت المغني المنبعث من الإذاعة. فكرة الرجل الذي رآه في المرآة بدأت تشكّل له قلقًا داخليًا.

ـ ماذا يُريد مني هذا الرجل؟

بدأ يرجع إلى أحلامه التي بدأت تكبر مع الإحساس بقرب وصول الترقية؛ لعل هذه الهدية ذكّرت الزمن والعسكر بأنني أستحق الترقية. الأحلام تكبر والمسافة تقصر للوصول إلى قريته التي رماها الله بين جبال الجحر. بدأ يقلق، يفكّر في صورة الرجل الذي يتجسس عليه.

ـ ربما اختفى في الصندوق الخلفي لسيارتي.

أوقف السيارة على الرصيف. رفع عينيه بحذر إلى المرآة. وبلمحة بصر سريعة شاهد الرجل نفسه. الرعب يزداد، ويكبر. ينزلُ من السيارة. يتجه إلى الصندوق الخلفي للسيارة، وفي يده عصا غليظة. وقبل أن يفتحَ الصندوق، خاف أن يكون أكثر من رجل في السيارة ويقتلوه. فيخسرُ كل مشاريعه الحلمية. قرر أن يذهب بسرعة، وفي البيت سيُعالج الموضوع بطريقته الخاصة. وصل إلى البيت أدخل سيارته كعادته إلى البهو. لم يذهب مباشرة إلى زوجته ـ التي ستكون في المطبخ كعادتها الدائمة في هذا الوقت ـ ماذا سأفعل بهذا الرجل المختبئ بداخل السيارة أو ربما الرجال؟

ذهب إلى بيت جاره كي يساعده على حل مشكلة الرجل الذي يتجسس عليه. أخبر جاره بالقصة، فتحمّس الجار للمساعدة. أخذ البندقية من حائط المجلس، وألقمها عدة طلقات نارية. اقتربا من صندوق السيارة. طرق الرجل (المرتعب) صندوق السيارة الخلفي بقوة وفي ظنّه أن الرجل سيخاف ويهرب أو يطلب العفو. وجاره على بعد خطوات، وفي وضعية الاستعداد. أدخل الرجل مفتاح سيارته في صندوق السيارة الخلفي. فتحه وهو يرتعب. انفتح الصندوق الخلفي للسيارة. ولم يجد شيئًا. أُصيب بالإحباط والخيبة. حاول أن يتهرّب ويتعلل فقال لجاره متلعثمًا:

ـ يمكن هرب يوم سرت عندك أخبرك.

دخل بيته. خلع مصره الجديد ودشداشته. فكّر في الرجل الذي يراقبه.

ـ ربما يكون سِحرًا.

ـ قد يكون شخصًا يريد أن يقتلني.

ـ قد يكون شخصًا أرسله الضابط ليراقبني.

أخذ يقلب كل هذه الفرضيات في رأسه. ولكن لم يجد أي مبررات مقنعة. فهو يصلي لذا لا يقربه السِحر. وهو مسالم فليس لديه أعداء. ومسؤوله في العمل يحترمه ويمزح معه فلماذا يراقبه؟

لاحظتْ زوجته التغيرات على زوجها. حاصرته بالأسئلة. لم يرد على أسئلتها.

أخذ يهذي ويفكر في الرجل الذي يراقبه. أخذ بندقيته القديمة ومصباحًا. أخذ يُفتّش السيارة من الكراسي الخلفية والأمامية ومن أسفل السيارة. قرر أن ينام هذه الليلة في السيارة، ويخسر متعته الأسبوعية مع زوجته. قال في نفسه:

ـ ربما سيرجع هذا الكلب الغـ... في الليل وأذبه.

نام نومًا متقطّعًا قلقًا. رأى كوابيس. صورة الرجل شاهدها عدة مرات، حاول أن يقبض عليه في الحلم؛ فلم يستطع. طلع الفجر ولم يطلع هذا الرجل.

أخذ قهوته الصباحية. ذهب إلى السوق كعادته صباح كل يوم خميس. كل أصحاب السوق لاحظوا على وجهه تعابير مختلفة، كلامه أصبح أقل. نكاته ماتت.

سيخسر كذلك الليلة متعة نهاية الأسبوع مع زوجته، وسينام في الكراسي الخلفية للسيارة. في هذه الليلة، وهو ينظر إلى النجوم شاهد كل شريط حياته يمرُّ. رأى نفسه طفلًا معذبًا في بيت أبيه؛ بعد موت أمه بمرض مزمن. شاهد نفسه في جنازة أمه يبكي، وهو لا يدرك معنى الموت. تذكّر جيدًا زواج أبيه بعد شهور قليلة؛ وفي العرس صبَّ فناجين القهوة وفرح لفرح أبيه. تذكّر جيدًا سنوات العذاب مع زوجة أبيه، فشله في الدراسة. وخروجه من

المدرسة ومن القرية، وذهابه إلى مسقط. بحثه المتعب عن لقمة العيش. تذكّر جيدًا وجه بنت خاله فاطمة، وأول ليلة معها شكا إليها حزنه وعذابه وليالي الدموع والجوع. بنت خاله صارت زوجته وأم بناته الست. مع السنوات في مسقط وحبه لبناته وعائلته نسي طفولته. هذه الليلة فجّرتْ طفولته كينبوع ماء. الخوف من الرجل جعله يراجع كل مراحل حياته. فلم يجد أي عداوة مع أحد.

مرّت صباحية الجمعة في قلق وتوتر من صورة الرجل الذي شاهده في المرآة. القلق الذي يعيشه منذ يومين يتحوّل إلى كآبة. في ظهر ذلك اليوم ذهب إلى «المعلم» من أجل «حرز». أخبره بقصة الرجل الذي يطارده كاملة. كتب له شيئًا في ورقة وخاطها في قطع قماش بيضاء وقال له:

ـ خبّئها أسفل الكرسي الخلفي.

وضع قطعة القماش البيضاء أسفل الكرسي الخلفي. كوّم ملابسه ومصرّه الأحمر في كيس. قذف بها في الصندوق الخلفي لسيارته. عندما حان وقت الرجوع إلى مسقط، ودّع زوجته وبناته الست بحزن باهت. أدار محرك السيارة. في الطريق تحسّر لعدم إخبار زوجته بالهدية. وفي طريق العودة لم يرفع رأسه إلى المرآة خوفًا وقلقًا. وصل إلى مسقط ليلًا. وفي محاولة منه لنسيان صورة الرجل، كدّس جسده في فراشه. راجع وهو في حالة أرق وكآبة هذه القصة التي مرّ بها. ما يزيده قلقًا كلما فكر في الأمر:

ـ لماذا يراقبه هذا الرجل صاحب العمامة الحمراء؟

ما بين القلق والكوابيس انقضت هذه الليلة كما مرّت الليلتان الماضيتان. في الصباح لبس مصره الأحمر. جهّز دلتين دلة شاي ودلّة قهوة. ذهب مباشرة إلى مسؤوله ليخبره بقصته. كان يسرد قصته وفي وجه الضابط ضحكات مكبوتة.

ردّ الضابط: سأفكر في هذا الرجل وأقبض عليه.

خرج من مكتب الضابط. دخل دورة المياه. نظر إلى المرآة الكبيرة، سمعوه يصرخ، عندما دخلوا عليه وجدوه مغميًا عليه، ساقطًا على الأرض والعمامة الحمراء ساقطة في المرحاض.

مسقط

23/1/2010م

وجوه في ذاكرة رجل
لا ذاكرة له

إلى منال: رديني إليكِ غريبًا، وامنحيني ولو نخلة واحدة ؛ لأموتَ تحت جذعها، لعلَّ الطفولةَ ترتدُّ إلى ظلّي أو يرتدُّ الظلُّ إلى طفولتي.

حمدان ناصر

صباح القهوة. صباح الحكايات القديمة أيها الجد الراحل المرتحل، بسنواته السبعين وتجاعيد وجهه المتعب؛ يسندُ ظهره المتقوس إلى جدار غرفته الطينية (التي رفضتْ أيَّ مظهر من مظاهر المدنيّة أو «شُغل الكفّار»). يبدأ كل صباح يصبُّ الحكايات، والأحفادُ وعاء جيد للحكايات. يحكي لهم أنه كان من رجال الإمام (زمن الإمامة) وحرب الجبل. وكيف أنه استطاع برصاصة واحدة من (صمعه)[1] أن يقتل نصرانيًا. لم يسمع الأحفاد بكل هذا، لا حرب الجبل ولا الإمامة، بل حفظوا «الجبل الأخضر صنع يدي

(1) الصمع: نوع من الأسلحة التقليدية العمانية.

وأنا فلاح يا بلدي»، لم يعرفوا أن هذا الأخضر كان جبلًا من الدم ـ بسبب فقدانه البصر ـ لم يكن يرى ابتساماتهم الساخرة...

رحل فجرا قبل أن يصبَّ حكاية جديدة..

ظلّتْ قهوته باردة في الفنجان مع الحكاية.

خلفان الضاوي

بابتسامته الجميلة، وصمته الدائم، ووحدته المقدّسة، ظلَّ لسنوات طويلة يعيشُ في عزلته. لا شيء في سماء أيامه إلا الشياه القليلة وأشرطة أبي بكر سالم القديمة، التي يصدح صوتها آخر المساء. الأشرطة القادمة من البحرين والكويت مع أصدقاء قد رحلوا عنه. يصرُّ خلفان الضاوي بعناد صلب أن أبا بكر سالم يمني وليس سعوديًا. وأنه ليس له علاقة بأبي بكر الصديق. رحل مدهوسًا بسيارة أمام بنك مسقط ؛ قبل أن يتسلم راتب الشؤون الاجتماعية. وظلّت أغاني أبي بكر «اليمني» مدفونة في الظلمة.

تعيب بن سعد

وجهه الأسمر، حكاياته الساخرة من كل شيء. ظلَّ سيد المقابر الأول في القرية. حفّارُ قبور بامتياز. حفرَ أكثر من ألف قبر هو وصديقه (كرِيم). أقعده المرض والسنوات. أكله الحنين إلى المقابر.

قبل الحكاية

قيل أنه قَدِم طفلًا ذات صباح وحيدًا من إحدى القرى البعيدة. فعمل على تقطيع جذوع النخيل الميتة. وبين النخل الميت والمقابر حكاية أخرى.

قبل أن تبدأ حكاية أخرى. ألا تكفي هذه القبور والأحزان حتى يحترمكَ العابرون؟

حامد الشنين

احتار حكماء القرية فيه. حاول شاعر القرية أن يخترق صمته فلم يستطع. صمت هذا الرجل غير عادي. نسي الشاعر صمت ود الشنين. بدأت قصته مع الطفولة. تنبثقُ الحكايات من بين الجبال دائمًا. في صباح قروي قديم جدًا، لم يكن هذا الصباح جميلًا لحامد الشنين. رفع أبوه عليه الكلمات الجارحة، وانجرحت مشاعره. فترك للقدمين حرية غسل غضبه. وللمسافات حرية العزلة في القلب، مساءً وصل إلى ساحل الباطنة، غريبًا ظلَّ على الأمكنة لعدة أيام، مع «الثيران» وصل إلى أبو ظبي، مع البحر وصرخات أبيه لا تزال تمزّقُ مشاعره. وصل إلى البحرين، عاش غربته بكل احترام.

سيف عبد الله

كنتُ طفلًا أيها الحالم عندما كان كُلُّ همّك اليوميّ أن تملأ «قفيرك» بالخلال حتى يرضى عنك أبوك/ القدّيس.

وكلّما وصلتَ إلى البيت الطيني الذي يسكنه سيف بن عبد الله تهرب بسرعة. بسبب خوفك الشديد من العدد الكثير للقططة المتناثرة حول البيت الطيني وداخله، وكأن البيت مُلكٌ لها. قيل أن سيف بن عبد الله يشتري في كل يوم خميس من سوق سمائل كيلو سمك لهذه القططة. ليس له أطفال ولا زوجة. مات ذات ظهيرة حارقة وتشردت القططة في القرية.

وبعد عشرين عامًا؛ وبعدما شاهدتُ امرأة عراقية (في تقرير إخباري) تُربي قططة كثيرة في بيتها ؛لأنها ليس لديها أطفال حينها أدرك ذلك الطفل لماذا قططة سيف بن عبد الله كثيرة؟

يعقوب سليم

في وجهه هموم الدنيا، وفي قلبه أحزان كل البشر. وفي وجهه كذلك ابتسامة طفل بريء؛ ولكنها ساخرة من المدينة، نظراته إلى الأشياء ليست عادية، فشله في الدراسة ليس عاديًا.

- أين حمارك يا ود سليم؟

هل طحنته هو الآخر لعنة المدينة «التي تكرهها». صمتك الذي تستعين به يكفي لإحراق قذارة هذا العالم. صديقك ناصر بن حمد بشر أسرارك الحياتية. والجبال وطن روحك.

حلمك في الرحيل ما زال في رأسك، ستمرُّ غريبًا على الكلمات الطيبة أيها الطيب.

عبد الله خميس/ خارج الذاكرة

رجلٌ يطلُّ بسنواته على التسعين. سبعون عامًا ونيفًا ما يزال المنفى يأكل قلبه. وهذا الامتداد الزمني الموحش في الغربة لم يستطع مسح ذاكرته. يذكرُ مدينته، قريته، نخله، بيته الطيني، قبر أمه، كل القرى التي مرَّ بها. أربعة وسبعون عامًا قضاها في زنجبار، وهذا الزمن الممتد كالثعبان لم يقتل في قلبه الحنين إلى بيته الطيني، هذه المرأة الزنجبارية وأطفالها الاثنا عشر لم تستطع خنق ضوء المقبرة وقبر أمه، رائحة القرنفل غسلت جسده ولم تغسل من قلبه وعينيه رائحة النخلِ وهتافاتها الصباحية.

قبل الحكاية

كان يحمل أربعة عشر ربيعًا ويتمه وجوعه عندما صفعته رائحة البحر والجوع والغربة. من «وصاد» يصفع هو دموع أهله، يمرُّ بـ«بياق» و«وبال»[1]. يمرُّ بجنونه بطريق الخيل في مطرح، يركب مركب يوسف بسبعة قروش. في البحر لم يتكلم، بصمته خنق كل كلمات الحنين إلى الوطن. إلى الآن في قلبه كل شيء البيت الطيني والمقبرة ورائحة النخل.

(1) «بياق» و«وبال» قريتان تابعتان لمدينة سمائل العُمانية.

قبل أن تموت الحكاية

راح يطلُّ على سنواته التسعين، يطلُّ على الطفولة وبيته الطيني و(كنده)[1] ورائحة النخل، سبعون عامًا أكلت الغربة قلبه. هنا زنجبار ورائحة القرنفل وهناك الحنين وبقايا الطفولة وحلم وطن، وطن يمنح جواز سفر. إنه عبد الله خميس خارج الذاكرة.

2006/8/7م.

(1) الكند نوع من البنادق التقليدية العمانية.

لحظةُ سقوط

أعرفُ أنَّ الطلقةَ

رعناءُ حدَّ الموتِ

وميتةُ القلب

لا ترحمُ ـ في الحربِ ـ أباها

لكني...!

أسخرُ منها

وأمدُّ لساني ـ حين تمرُّ ـ بهزءٍ

. . . أتحدّاها

. . . أنْ تغتالَ من القلبِ

. . . قصيدةَ حبٍّ

عدنان الصائغ

الله يلعنكم

الله يلعنكم

قتلتموه

الله يلعنكم

حملت الملائكةُ اللعنةَ من دوّار يحملُ فوق رأسه الكرة الأرضية بكل تعاساتها وأحلامها وطغاتها. سمعَ كلٌّ من كان في هذه الكرة من بشر وحيوانات وجبال وصحارٍ ومياه وخيول وسفن راسية وأخرى مبحرة إلى المجهول، اللعنة التي ولدت هكذا ـ مصادفةً ـ في الشارع؛ ولدتْ في لحظة الدم.

توقف الزمن والبشر في هذه اللحظة. كلٌّ من كان بالكرة شاهدوا الدمَ. كلٌّ الجهات استيقظت للحظة السقوط. ومن بعدها ولدت اللعنة.

طائرٌ أبيض؛ أبيض بلون لحظة السقوط، أبيض بلون لحظة ارتفاع الروح إلى السماء. الطائر الأبيض الواقف فوق الكرة التي اهتزّت للحظة السقوط. راقب الوضع بقلق المشهد.

راقب الطائر الرصاصة المنطلقة من بندقية رجل الأمن؛ إلى قلب الشهيد. رصاصة القاتل. صرخ الطائرُ في وجه الرصاصة:

ـ توقفي قبل أن تستيقظ الكارثة.

كانت شحنات الحقد والكراهية والغباوة كفيلة بأن تستقر الرصاصة في قلب الشهيد.

الدم والشارع وعينا الطائر الأبيض والكرة المثقلة بالدم حوّلت اللحظةَ إلى زمن «اللعنة». هذا الأبيض الواقف فوق هذه الكرة الدموية لم يحتمل الدم والرصاص ورجل الأمن. صفق بجناحيه بعيدًا إلى سماء أكثر بياضًا، وإلى أرض أقل قمعًا ودمًا.

هاجر الطائر الأبيض عبر البحر والمحيط مع رفاقه إلى سماء أخرى. من الأعلى الصافي الأزرق رأى دوارًا مُحاطًا ببياض الثياب وسواد الرصاص وبينهم جرى دم. الدمُ لم يفصل البياض عن السواد فقط. بل فصل بين زمنين من حياة البشر؛ بشر تلك البقعة المحيطة بالدوار. هاجر صامتًا. في منتصف المسافة والرحلة؛ وبعد صمت طويل قال الطائر لرفاقه:

ـ ......

ـ حدثني أجدادي عن سلالاتهم عن كُتب الأرض والزمن «أن الأرض التي كُنَّا بها؛ وهاجرنا منها، قد ارتوت من دماء بشر وسلالاتهم من دم الغزاة وأذنابهم ومن دم القبائل، ودم الحروب والهزائم والنصر»

- ......

- حدثتني سلالاتي عن هجراتهم عن حروب وشهداء في بحار وصحارٍ وجبال تلك الأرض، وعن إعدامات وعن مقابر شهداء ومقابر غزاة. وعن سجون وعن سراديب. وعن ضباط شُقر وحُمر. عن عسكر ومعسكر. وعن شعب هُجن ضد نفسه وأحلامه. وعن مناضلين وخونة، وعن خونة باعوا النضال. واشتروا به ملذاتهم. وعن حروب قامت في الجبال، وعن جبال اغتسلت بالدم والبارود.

من دم هذه الجبال نبتت منافٍ وهجرات وحدائق من الندم».

صمت الطائر الأبيض مرة أخرى. دفنَ الليلُ الطائرَ الأبيض ورفاقه.

❀ ❀ ❀

انتقلت اللعنةُ إلى القلعة الأمنية في العاصمة.

العاصمة الساقطة بين البحر والجبال.

العاصمة الساقطة بين الدم والندم.

العاصمة الساقطة بين سماء الله وأرض الطغاة.

في القلعة الأمنية اجتمع ضباط الأمن. أغلقوا الأبواب، أقفلوا النوافذ، حاصرتهم اللعنة، ودم اللحظة

كان يتربص بهم. كان ساخنًا، ويصرخُ على بوابتهم الكبيرة.

ـ أنا هنا. يسقطُ......

يسقطُ........

يسقط........

في الاجتماع الأمني المغلق حاول ضباط الأمن وضع خطة محكمة الخيوط لمحاصرة اللعنة المولودة من الدم. اللعنةُ كانت تنتظرهم ساخنة وحارقة تحت قلعتهم، قال كبيرهم ـ بكرشه المنتفخ ونجومه وسيوفه الرابضة فوق كتفه:

ـ أنا سأطهّر البلد من هذه اللعنة.

ـ هذه اللعنة مؤامرة خارجية، تحاول إقلاق راحة الشعب والمواطنين. هنالك أجندة خارجية لهذه اللعنة لتدمير منجزات البلد.

الله يلعنكم

الله يلعنكم

الله يلعنكم

قتلتمـ..... وه.

ارتجفت قلوب وأجساد الضباط، بال كبيرهم في سرواله الداخلي العسكري. احتاروا كيف أن هذه اللعنة ما زالت تطاردهم.

دخنوا، تناقشوا، شربوا، تناقشوا، صرخوا، هددوا، شتموا اللعنة التي تصرخ الآن في مرتفعات مدينة الإعلام.

كل من كان في رابية مدينة الإعلام وما حولها سمعوا اللعنة تصرخ، ولكن فشلوا في وصف جسد هذه اللعنة. بعضهم رأى اللعنة تجتاز إشارات المرور في مدينة الإعلام، وبعضهم شاهدوها تغتسل من التعب على شاطئ الحب.

عجوز إنجليزية كانت تشرب قهوة سوداء في المقهى البحري عندما رأت اللعنة تمرُّ مسرعة قالت لابنها المدلل:

ـ الكارثة ستحلُّ قريبًا.

وبالغ بعضهم أنهم شاهدوها تشرب قهوة ساخنة في أحد مقاهي شاطئ الحب.

بعدما غسل كبير الضباط الأمنيين بوله، قرر أن يبدأ بخطته للسيطرة على هذه اللعنة. وصل في مساء تلك الليلة إلى الدوار الذي ولدت منه اللعنة. عندما اقترب من المكان، ومن طائرته العسكرية رأى بشرًا يهتفون، يصرخون. حدّقَ إلى الوجوه، سمع الهتافات، ارتفاع الصوت، اهتزت الطائرة. استمع إلى الصوت القادم من الدوار الذي يحمل فوق رأسه الكرة الأرضية سمع:

ـ يسقط.....

ـ يسقط....

ـ يسقط...

ـ الشعب يريد......

ارتعب عندما سمع اسمه يتداول من ضمن الأسماء المطلوب إسقاطها.

ارتعب وارتجف واهتزّ كل جزء من جسد هذا الضابط الحامل كل النجوم والسيوف فوق كتفه. أمر الضابطُ الطيّارَ بالرجوع إلى القاعدة.

في القاعدة، بدأ يشتم اللعنة، ويصرخ، ويبكي.

عندما هبطت طائرة الضابط الكبير في القاعدة العسكرية. كانت اللعنة تقيم جنازة عابرة لدم الشهيد. أشعلت اللعنة عدة شموع للجنازة العابرة فوق البحر. كلُّ عشّاق شاطئ الحب شاهدوا جنازة الشهيد العابرة، ولكن لم يروا المشيعين بل شاهدوا الشموع ترافق الجنازة.

مرّت الجنازة بشوارع العاصمة الخالية من المارة. على طرف العاصمة كانت تنام مقبرة لشهداء. نامت اللعنة بالقرب من أرواح شهداء الجبال البعيدة. قبل أن تنام كانت تحدّق إلى سماء العاصمة. سمعت صوت الطائر الأبيض يغني بصوت حزين.

قامت اللعنة لتصلي ركعتين لدم الشهيد. في السموات البعيدة كان صوت الطائر الأبيض يموت حزنًا. سقطت دمعتان من عينيها على الدم الذي سقط. وبكى الضابط على خيبة فشله.

الخديعة المعلّقة

في الجناح المنزوي من المستشفى، في الغرفة السادسة، السرير رقم (5). ها أنا أقضي ليلتي الثالثة بعد التسعين. في الصباح أرى وجوهًا ـ مختلفة، وصامتة، ومتنوعة لأطباء وممرضات. تصرخ الأجهزة من التعب والألم. أنابيب معلّقةُ على الجدران. أصوات تختلف، تتنوع، ترتفع، تخفت، تصمت، تموت. صوت الزمن هو الوحيد الذي لا يموت. عقارب الساعة البيضاء المعلّقة بعناية فائقة.

تك تك

تك تك تك

تك تك

موجع وموحش هذا الصوت.

صوت أقدام أطفال يركضون، صوت الريح؛ وهي تعصف برؤوس النخيل، هديل حمامة جبلية وقت الغروب، خرير الماء المنسكب، صوت امرأة تناديني، أزيز طائرة في السماء. صوت رجل أعمى يسرد حكايات غامضة. صوت مؤذّن يأتي من القُرى البعيدة.

تك تك

تك تك

تك تك.

كل الأصوات يطويها النسيان. صوت الساعة المعلّقة بعناية فائقة يقلقني جدًا. الزمن بارد هنا. بارد جدًا.

مسترخٍ، شبه كلمات تتقطع وتبتعد. تتماهى أحيانًا، تصلني أحيانًا أخرى.

- «إن حالتي شبه مستقرة، وإنني سأتحسن، بالرغم من الحالة التي تشبه الغيبوبة».

وفي المساء أرى وجوهًا كثيرة، أعرف بعضها، وأخرى قد نسيتها، وثالثة تسقطُ بين النسيان والغيابِ.

الفتاة الواقفة على طرف السرير، تمسكُ بعموده. كانت في طفولتي تشتمني دائمًا، وتصرخ في وجهي؛ أنني فاشل و(بغام)(*). الآن تقفُ على بُعد أمتار قليلة تتأمل وجهي. تعابير وجهها تقول بأنها تشفق عليَّ. وأنها ستبكي لو مُت.

- سأموتُ، سأستمتع جدًا بدموعك.

وجه رجل عجوز، كان يشي بي دائمًا أنني لص. لص

(*) جاهل.

يسرقُ كل شيء، دجاج الجارات، ملابس بناتهنَّ. ويسرق الطعام من المطابخ.

وجه واحد حاولتُ تذكّرهُ؛ ولم أستطع، فتاة شبه باكية ونصف حزينة. تقفُ على الطرف الأيمن من السرير، خلف امرأة عجوز. متى عرفتها؟

ـ لا أدري.

ربما ليست من القرية، شفتاها المطليتان باللون القرمزي، وعباءتها المطرزة بغابة من الورود الحمراء تدلُّ على أنها من المدينة. يااااا الله ضجرتُ من كلامهم وثرثراتهم، ومن مقولاتهم المطبوخة مسبقًا.

ـ «إنّ حالته هذه هي اختبار من الله، ليمتحنَ قوة إيمانه، وصبره»

ـ يكفي هذا العذاب، إنّي أعلن فشلي في هذا الاختبار القاسي والصعب. همستُ بشفتيّ.

أيادي الممرضات وهنَّ ينقّلن جسدي تختلف من يد إلى يد. يدٌ تقول لك: كم أشفق عليك أيها الميت.!

ويد تقول: هيا مُتْ و«ريّحنا» من تعبك اليومي، وتنظيف جسدك العفن.

ويد أخرى: تدمع عيناها وقلبها، وتتمنى أن أرجع إلى طفلتي التي تزورني كل مساء.

خلال الشهور الثلاثة الماضية، كانت الأنابيب رفيقتي، كنتُ أهمسُ لها أن ترحمني. أن تشعر بالألم الذي يقتلني. كنتُ أُناجي الكيس الأبيض المعلّق، والحروف المكتوبة عليه. مُتعتي الوحيدة هي عدُّ ومتابعة القطرات النازلة من الكيس الأبيض المرفوع جانب سريري. أخطىء في العدِّ، أعدُّ مرة أخرى. نسيتُ الأعداد.

يزحفُ الليل قليلًا. كلٌّ ليلة و(تك تك) ترفع من منسوب قلقي. أُمارس خدعة الأعداد. أصلُ إلى الرقم خمسة وعشرين، وأتذكّرُ أنني نسيتُ العدد سبعة، أرجعُ، أنسى رقما آخر. لذيذة هذه الخديعة.

في الظلمة فقط أستطيع أن أُمارس الخديعةَ مع الوقتِ والليل. اللعب مع الصور المعلّقة على جدران هذه الغرفة البيضاء الباردة.أفكّرُ أن أكتبَ في وصيتي:

(أن يكون لون قبري أبيض. عشقتك أيها البياض. عشقتك أيها البياض).

في الليل فقط أستطيع الحديث مع الصور المعلّقة، أن أثرثر معها، أبوح لها بالحنين والألم. بعدما مللتُ خديعة العدِّ.

ـ هل هذه الصور لي أنا فقط؟ هل للزائرين أم للمرضى؟

أم أنها ديكور؟ غير مهم لِمن هي، المهم أنها موجودة.

الصورةُ التي على جانبي الأيسر، في منتصف الحائط تقريبًا. صورة إبل (ربما عددها ثلاثة أو أكثر). بسبب الكثبان والظلال لم أستطع عدها. حاولتُ عدة مرات عدَّ الإبل، بعضها يختفي بين الظلِّ والغروب. وحيدة في صحراء تمتدُّ بعيدًا. من خلال الظلال الساقطة على جسد الرمال، الوقت يقول إنه الغروب.

يخرج الزائرون من الغرفة. تضع الممرضة أنبوب التغذية في رقبتي وأنبوبًا للتخدير في يدي. تودّعني بابتسامة لا أعرف مغزاها. هل هي صادقة أم هي جزء من روتين العمل؟

عندما تصمتُ كل هذه الأصوات، تخرج الإبل من إطار الصورة تقفز في الغرفة. جيراني المرضى لا يشعرون بها. أنا الوحيد الذي أراها جيدًا. تخرج من الصورة. بالرغم من أحجامها الكبيرة إلا أنها تحاول أن تجعل لنفسها مساحة. خفتُ أول مرة شاهدتها. حرّكتُ الأنابيب، حاولتُ أن أصرخ. ولكن صوتي لم يخرج. وبعد عدة ليالٍ تعودتها. لا تحضر كلها. يظهر بعضها، ويختفي البعض الآخر.

تسرد لي يومياتها. وكيف التقط المصوّر الصورة؟ وأن المصور أشعل سيجارته بكل هدوء، نظر إلى السماء، أطفأ اللفافة. وأن الوقت كان قبل المغيب. تسرد لي حكايات البشر في الصحراء. وقالت لي: إن الصحراء بمثابة الوطن والأم لها.

سألتني مرة عن أمي، فقلتُ: إنني لا أتذكّرها جيدًا.

كل يوم تسرد لي الحكايات. تغادر الغرفة قبيل الفجر. أو عندما تطلّ الممرضة؛ لتتأكد أنني في وضعية جيدة، أو ربما لتتأكد أنني حيّ!

صورة أخرى في أعلى الباب. رجل بعمامة حمراء منقطة بمربعات بيضاء، العمامة المطوية حول الرأس بعبثية ما. وفوق العمامة حبل أسود مربوط بشكل دائري. الحبل الأسود يشبه (العِقال). يمسك عصا بيده. كنت أتأمل الإبل؛ وهي تمضي إلى الصحراء، وتختفي وتظهر فوق الكثبان. كنت أفكر في عزلتها.

- هيش فيك[1]؟

....

عندما لاحظ صمتي صرخ بقوة:

- هيش تبا[2]؟

- ....

- اشفيك سيحت لي بنسمي هيش تبا[3]؟

- لا أُريد شيئًا سوى أن تبعد عني رائحة تبغك؟

- هيش فيها الدوخة[4]؟

---

(1) ماذا بك؟

(2) ماذا تريد؟

(3) ماذا بك، قطعت أنفاسي، ماذا تريد؟

(4) ماذا بها رائحة السيجارة؟

ـ رائحة تبغك كريهة. تخنقني. تذبحني.

ـ الدنيا حالهي مالهي واليهي كريم وراكبهي حافي[1].

يشعلُ تبغ مدوخه بكل هدوء ولذة. يصمت حينًا ويغني أحيانًا.

في صورة أخرى عُلقت بطريقة ما في الممر الذي أذهب عن طريقه إلى دورة المياه كان صوت امرأة تغني. في البداية لم أنتبه لهذا الصوت الحزين. في الليل فقط أسمع صوتها. لم تخاطبني قط. كانت تخاطبُ ظلَّ رجل؛ ربما رحل. تحنُّ إليه. تذكر كل شيء به؛ وجهه، صوته، عينيه. كان في صوتها صفاء غريب. قلت لها:

ـ من أي البلاد أنتِ؟

ـ ....

صرختُ مرة أخرى:

ـ من أي الدماء أنتِ؟

ـ ....

واصلت غناءها لرجل ما. لم تلتفت إلي.

❀ ❀ ❀

(1) هذا عبارة عن مثل يقول: الدنيا دار المال، وبها ربُّ كريم. وإنسانها حافٍ.

بعد ثلاثة أيام من وفاة الرجل النائم في المستشفى في القسم المنزوي، كانت امرأة تغني على قبره. ومرّتْ ثلاثة إبل بظلالها على القبر. من تحت (غافة) على طرف المقبرة تصاعد دخان مدوخ لرجل بعمامة حمراء ذات مربعات بيضاء.

قصـــص قصـيرة جدًا

زرقة

يُحكى أن امرأة انبثقتْ من زمن الشهوة. كانت تمتطي راحلة ضخمة، تحمل زرقة السماء وثوبًا حريريًا، وقفتْ براحلتها أمام المحل، ترجّلتْ من الراحلة. حملتْ زرقة السماء والثوب الحريري أعطتهما إلى العامل. أصلحَ العاملُ الثوب الحريري وجزءًا من زرقة السماء. لم تكتمل دائرة الابتسامة على وجهها. بقيت الدائرة مفتوحةً. حملت الزرقة إلى رجل آخر حتى يُصلح الجزء المتبقي منها. انتظرت المرأة عشرين عامًا، فلم تتذكر المرأة سوى جسد العامل.

حُلم

كتبَ في ورقة خضراء كان يُخبئها في قلبه «الصحراء وحدها تمنحك تذكرة إلى الأبدية». رأى الصحراء في عيني أبيه. فَقَدَ التذكرة. ظلَّ لسنوات طويلة يبحثُ عن جواز سفر؛ لكي يُمنح تذكرة لدخول الأبدية. وجدَ جواز سفر مُزيّفًا، قنعَ به. ظلَّ لسنوات أخرى يجمع مالًا لتذكرة، جمع المال، ضاع الجواز مرة أخرى. مات قبل أن يحاول مرة أخرى، وهو يحمل حُلم الأبدية والصحراء.

صوت

نام الرجل على صوت غناء امرأة جميلة. في تلك اللحظة هربَ جميع يمام الصحراء ليجمع رصاصة واحدة لقتل صوت المرأة. سقطت الرصاصةُ فى المدى، وسقط جميع الرجال تحت صوت المرأة.

لوحة

رسَمَ الطفل حصانًا وقطارًا. حاولَ أن يقود القطار خارج الضجيج. خاف الشرطة؛ فهو لا يملك رخصة قيادة قطار. أوقف القطار في مكانه. كانتْ رغبة جامحة تثيره لتحريك القطار. حاول أن يُرجع القطارَ إلى الخلف قليلًا، تذكّر أنه لا يوجد بنزين لا في اللوحة ولا في الوطن. نزلَ من القطار، حاول ركوب الحصان. كان الحصان جائعًا. رسم عشبًا أخضر. العشب يحتاج إلى ماء. رسم سحابة. هطل المطر من السحابة. أكل الحصان العشب. حاول ركوب الحصان، ظلَّ فوق ظهر الحصان.

وفي النهاية (بعدما تعب من الركوب) تذكّر أنه مجرد حُلم.

كلب

لا يذكر هو الليلة بالتحديد. يذكر الموت والليل والعطش في تلك الليلة. أسند رأسه الصغير إلى وسادته، عانق في الحلم «بنات نعش» أخذ يتمتم بصوته الخفيف **«بنات نعش شالات نعش /**

باقيات سبع ما طايحات النار».

ضاجعت الظلمة الأرض. انتصف الليل. تسلّل العطش كاللص إلى حلقه. انتفض من فراشه كالملدوغ. جال بنظراته فلم ير إلاّ السواد. لا يزال كلب جده يطارد بنباحه الشياطين. ينبح بالقرب من باب الحوش. كان «السعن»(*) خارج الحوش. العطش يحرقه والكلب ظلّ مزروعًا كالموت على الباب. مدَّ الكلب قائمتيه، رفع رأسه إلى السماء. فتح فمه للنجوم، ظلّ يمتص بلسانه حُلم الطفل من كل النجوم. بلا حلم، بلا ماء بلا نجوم ظلّ يحترق عطشًا.. . تمدد على فراشه مرة أخرى، ظلّ يلعن الكلب ويلعن الشياطين حتى أذّن «حميد بن ناصر» لصلاة الفجر. مات الكلب ومات جده، ولكن ظلّ نباح الكلب يطارده في كل الأرصفة والأحلام والقرى والمدن.

(*) السعن: وعاء جلدي يستخدم لتبريد الماء.

شاعر وثلاث مقابر

صباحًا دخل المقبرة. بدأ ينثر البكاء على صمت الموتى. بكى وبكى بهستيرية. جرح بكاؤه قدسية المقبرة. خرج منها. لم يدرك لماذا بكى إلى هذا الحد. بعد الظهيرة دخلَ المقبرة الثانية، أخذ يضحك ويضحك و.....ضحك بصمت لكي لا يشاركه المَوتى في ضحكه. خرجَ من المقبرة؛ وهو لا يدرك لماذا ضحك إلى هذا الحد. ليلًا دخلَ المقبرة الثالثة. نام في لحد قبر، أخذ يُردّد بصوت حزين شعرًا وغناءً؛ في هذه المرة فقط أدرك لماذا أنشد شعرًا.

نفق

خرج من نفق الليل، دخل نفق النهار، جلس تحت النفق يبيعُ الجرائد والسجائر. رأى الشرطة قادمة، هرب خوفًا منها. دخل نفقًا صغيرًا، دخّنَ لفافةً، فكّر أن يجمع مالًا ليذهب السنة القادمة إلى الحج، سيمشي في نفق حتى يشرب من ماء زمزم. خرج من نفق الأفكار. دخل نفق العمارة. النفق ضيّق وصل إلى غرفته، دخل مرة أخرى نفق الأفكار. في المساء سيذهب لزيارة صديقه «الخياط» في نزوى. دخل نفق المساء، ودخل التاكسي الّذي يحمله نفق طريق مسقط ـ نزوى. بعد أسبوع دخل السينما. دخل نفقًا للوصول إلى قاعة العرض. في الفيلم شاهد أنفاقًا كثيرة. خرج من أنفاق السينما. جلس في نفق المطار ينتظر صديقه. خرج صديقه من نفق. هو نفسه سيدخل الشهر القادم هذا النفق ليذهب إلى وطنه؛ للبحث عن زوجة مناسبة بعدما ماتتْ حبيبته في نفق بسبب الفيضانات. دخل نفق الطائرة. في النفق دخل مرة أخرى نفق الأفكار. هل سأخرجُ من النفق الآخر في وطني بعدما عذّبتني أنفاق المنفى؟

تذكّر

وضع الحلاق الرغوة البيضاء على ذقن الشاب. تذكّر الشابُ بياض لحية جده. تذكّر أن جده مات قبل عشر سنوات. الآن لحية جده قد تحللت إلى تراب.

ذكّره البياض كذلك بالغيوم والقصيدة التي كتبها قبل سنة، وأهداها إلى حبيبته. تذكّر أن حبيبته الآن في حضن رجل آخر ولديها طفل. جرح الحلّاق ذقن الشاب، ظهرت قطرات دم حمراء. ذكّرته هذه القطرات بالثورات التي قرأ عنها أيام الجامعة هو وصديقه الحالم بالثورة، تذكّر أن صديقه الآن في السجن. ذكّرته قطرات الدم بالثيران التي تُذبح في العيد. هذه السنة سيساعد أباه ويشتري ثورًا هدية للعائلة، تذكّر أن أباه مات قبل شهر. خرج من عند الحلّاق وفي رأسه لحية جده وقصيدة حبيبته والثورة ودم الثيران.

كلام

كانت تبحث عن حزمة من الوقت لتقول له: «كم أنت رائع حقًّا». هذا الصباح ستقول له ما خبأتهُ ردحًا من الزمن بعدما يرجع من البحيرة. هكذا قررتْ هي. أعدّت له الشاي والكلام؛ لكن الموت قرّر أن يعانق زوجها، يعانقه في البحيرة. مات هو في البحيرة، ومات الكلام في الشاي.

امتداد

اليدُ التي كُتب عنها كثيرًا: أنها تبني الوطن، وأنها تحملُ أعظم رسالة «رسالة الأنبياء». امتدت صباحًا لتصفع وجه التلميذ بعدما ضغط على قدرة صاحبها على تحمل العمل. امتدت يد التلميذ إلى هاتف المدرسة، واليد الأخرى امتدت لتمسح الدموع. امتدت يد أبيه لتحمل سماعة الهاتف في مركز الشرطة. بنجومه الكثيرة امتدت لتفتح محضرًا لليد التي امتدت إلى وجه ابنه. في المركز الصحي امتدت يد الطبيبة لتكتب تقريرًا شاملًا عن الحالة الصحية للتلميذ. امتدت يد الضابط إلى جيبه، وامتدت بعد ذلك يد الطبيبة إلى جيبها لتدخل ما أخرجه الضابط من جيبه. صباحًا امتدت يد الضابط لتصافح يد المحامي. امتدت يد المحامي إلى صفحات تقرير الطبيبة. العامل في الادعاء العام امتدت يده إلى سماعة الهاتف، في الطرف الآخر امتدت يد المدير لتسمع خبر استدعاء صاحب اليد الذي يحمل رسالة الأنبياء. فتح صاحب رسالة الأنبياء هاتفه أرسل رسائل إلى أصدقائه، لم ترد أي رسالة على رسائله. فتحت يده باب المحكمة. أمسكت يد القاضي القلم لتكتب الحكم. فتحت يد الحارس باب الزنزانة. أمسكت يد صاحب الرسالة قلمًا وكتبت رسائل كثيرة على جدران

السجن. رسائل إلى الوطن، وأخرى إلى الأنبياء. امتدت يد الصحفي لتكتب مقالا عن الموضوع. امتدت يد الرقيب لتقطع يد الصحفي. امتدت يد الناشط في حقوق الإنسان ليكتب عريضة احتجاج، امتدت يد الحكومة لتقمعه. ظلّت اليد التي تحمل رسالة الأنبياء مدفونة في السجن. في السجن رأى أياديَ تمتد وأخرى تقمع.

في المقبرة يد رجل تعجن الطين بالماء، رائحة الطين تعبق في المكان. وفي المغسلة كانت الجثة جاهزة. مرَّتْ الجنازةُ صامتة وغاضبة.

همس شاب لصديقه :

- "اللّه يهديه المرحوم شو يريد لها الحكومة ؟ . مدرِّس راتبه زين.من يناطح الحكومة برأسه ؟ ".

كانت يد صديق تضغط على أزرار هاتفه وتكتب رسالة نصية :

- جنازة حمود الراشدي تمرُّ الآن في لحظاتها الأخيرة. مع تواجد أمني كثيف.

حمود سعود

الغلاف من تصميم الفنان محمد زايد الحبسي

ISBN 978-614-404-366-0
9 786144 043660